

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نظير

صِفَةُ الْجَمْعِ : "فُعْلَانُ" مِثْلُ قَضِيَانِ "فُعْلَانُ" مِثْلُ قَضِيَانِ لِلدَّكْتُورِ اِبْرَاهِيمِ اَنْنِيسِ

مجموع الانكسار العربية التي جاءت على هاتين الصورتين قد سببت بعض الحيرة لعلماء العربية فقد حاولوا في كتبهم أن يضعوا قاعدة لها ، فجاءت قاعدتهم في نهاية الجهد عرجاء لا تفسر الحكمة في أن عدداً من صور المفرد التي لا يمت بعضها إلى بعض من حيث البنية بأي صلة ، قد جمعت على « فعلان » بكسر الأول ، وأن عدداً آخر من صور المفرد قد جمعت على « فعلان » بضم الأول ١١

فأي صلة بين بنية المفردات « غراب . صرد . حوت . تاج » حتى يمكن أن يقال إنها تجمع قياسياً أو باطراد على « فعلان » بكسر الأول ؟ وأي صلة بين بنية المفردات « بطن . ذكر . قضيب » حتى يمكن أن يقال إنها تجمع قياسياً على « فعلان » بضم الأول ؟

ومن عجيب أمر هؤلاء العلماء أنهم إذا وجدوا في اللغة أمثال :
[« غزلان » جمعا لغزال : وخرقان » جمعا لخروف و « نسوان » جمعا لنسوة ،
« ركبان » جمعا لراكب ، « سودان » جمعا لأسود] قالوا : إن كل ذلك من المجموعات
القليلة أو النادرة ١١

هم يتصورون إذن أن الجمع « فعلان » بصورتيه ، مطرد في سبع صيغ ومجموع
في خمس صيغ من صيغ المفرد ١١ فأى جمع هذا ١٢ وأى لغة مستقيمة يمكن أن تتضمن
مثل هذا النظام الذى زعموه ١٢

فإذا حاولنا أن نضع فرضا معقولا في تأصيل هذا الجمع ، قلنا : إن أمثله العربية ،
لا تعدو أن تكون جموعا على طريقة اللغة الحبشية في جمع المفرد المذكور بإلحاق الألف
والنون ١١ ولذلك نفترض أن الجمع « فعلان » بصورتيه ، صيغة غريبة على العربية
الشمالية المألوفة لنا . وقد جاءت هذه الصيغة على حسب الجمع في اللغة الحبشية ، ربما عن
طريق العربية القديمة في جنوب شبه الجزيرة ، وذلك بأن ألحقت الألف والنون بالجمع
العربية التى على الصور [فَعْلٌ مثل خرس ، فَعُولٌ مثل بطون ، فَعْلٌ مثل غدر ،
فَعْلَةٌ مثل إخوة] فى السكثرة الغالبة من الأمثلة المروية فى اللغة .

والجمع بإلحاق الألف والنون كثير الشروع جدا فى اللغة الحبشية ، وربما كان أيضا
فى العربية الجنوبية التى كانت سائدة فى اليمن القديمة .

لماذا إذن لا نفترض أن السكثرة النالبة من الأمثلة التى رويت فى معاجمنا العربية
على « فعلان » بكسر الأول أو ضمه ، لا تعدو أن تكون فى الأصل جموعا عربية مألوفة
ثم جمعت ثانية على طريقة اللغة الحبشية بأن ألحقت بها الألف والنون ، فمن بما يمكن
أن يطلق عليه مصطلح « جمع الجمع » ١١

ولا بد هنا من وقفة قصيرة لنقول شيئا عن ظاهرة جمع الجمع ، التى لم يجد القدماء من
علماء العربية ما يعللونها به سوى أن يقولوا :

[قد تدعو (١) الحاجة إلى جمع الجمع كما تدعو إلى تثنيته ، فكما يقال فى جماعتين من

(١) أشمونى ج ٤ ص ١١٢

الجمال « جمالان » كذلك يقال في جماعات وجمالات ، وإذا قصد تكسير المكسر نظر إلى ما يشاكلة من الآحاد فيكسر بمثل تكسيره ، كقولهم في « أعبد » أعابد و « أسلحة » أسالحو و « أقوال » أقاويل وقالوا في « مصران » مصارين ، وغربان غرابين وما جاء من الجوع على زنة مفاعل ، مفاعيل ، لم يحزن تكسيره لأنه لا نظير له في الآحاد فيحمل عليه ، ولكنه قد يجمع بالواو والواو كقولهم في « نواكس » نواكسون وفي « أيا من » أيا منون ، أو بالالف والياء كقولهم في « حدائد » حدائدات وفي « صواحب » صواحبات . ومنه الحديث : إنك أنتن صواحبات يوسف [

ولا يكاد هؤلاء العلماء يحاولون تعليل ظاهرة جمع الجمع أو تسويها .

غير أنا نرى في إشارة منسوبة في لسان العرب للأزهري يعقب بها على ما روى عن سيديويه من أنه كان يعتبر كلمة « مصارين » جمع الجمع . جاء في اللسان : [المصارين جمع المصران جمعته العرب كذلك على توهم النون أنها أصلية] ١١

أى أن « مصران » في رأيه ، اعتبر مفردا عن طريق التوهم ، أو ما نسميه نحن بالقياس الخاطئ ، ثم جمع على مصارين ، وليست مصارين إذن في رأيه من جمع الجمع !! وظاهرة جمع الجمع تد عرفها اللغويون المحدثون في لغات متعددة قديمة وحديثة ، ليست مقصورة على اللغة العربية ، لكي نسمح لبعض القدماء من علماء العربية ، أن يقول : « إنها من سنن العرب » ١١

ويفسر اللغويون المحدثون ظاهرة جمع الجمع على أحد أساسين :

أولها : أن بعض الكلمات التي تتضمن دلالة الجمعية قد يكثر شيوعها جدا ، فتبلى فيها تلك الدلالة أو تضعف تدريجيا ، حتى تصبح في وقت ما وقد اقتضرت دلالتها في أذهان معظم الناس على الأفراد ، ويقال حينئذ إنها فقدت فكرة الجمعية ، وأصبحت بحاجة إلى أن تجمع مرة ثانية ، ولتوضيح ذلك يكفي أن نتذكر هذه الكلمات (زناد . برام . كراس . مصران) التي تجرى على ألسنتنا الآن ، ونحسبها من المفردات ، ولكنها في حقيقة أمرها جموع ، ومفرداتها الأصلية هي على الترتيب (زند . برمة . كراسة . مصير) ١

وقد أدى فقدان فكرة الجمعية إلى تكرار الجمع في الكلمة الإنجليزية Children التي هي الآن في أذهان معظم الإنجليز مجرد جمع الكلمة Child وفي الحقيقة أن المفرد Child قد جمع قديما على Childer حين كانت علامة الجمع « Er » ، تم تنويسيت جمعيتها فجمعت بعد ذلك بطريقة أخرى أو علامة أخرى للجمع هي « En » وهي العلامة التي لا تزال نراها في مثل الكلمة الإنجليزية Oxen فأصبحت كلمتنا في نهاية المطاف Children ١١

ثانيهما : أن فكرة الجمعية أو دلالة الجمعية في كلمة ما قد لا تكفي ، أو لا تقنع المتكلم ، فيعتمد إلى تقويتها رغبة في المبالغة ، أو التحويل ، بأن يجمعها مرة ثانية ، ويبدو أن هذه هي الحال التي سيطرت على ذهن علماء العربية بين القدماء حين تحدثوا عن جمع الكلمة مرة ثانية ، وسموا ذلك جمع الجمع . فهم يتصورون في جمع الجمع أنه يفيد عددا من الآحاد أو الأفراد أكثر مما يفيد الجمع الأول الأصلي .

ومما شجع على جمع الجمع في العربية ، ولا سيما فيما سموه بتكسير المكسّر ، أن في العربية بعض الصيغ التي يكثر ورودها مع بعض المفردات ومع بعض جموع التكسير في وقت واحد ، مثل « فَعُول » الكثيرة الشيوع في مصدر الفعل الثلاثي اللازم المفتوح العين أمثال : نزول . خروج . دخول . وهي أيضا كثيرة جدا في جمع الاسم الثلاثي أمثال : قبور . قرون . قصور .

وكذلك الشأن مع الصورة الأصلية للاسم الثلاثي حين يكون مضموم الفاء ساكن العين مثل : جرخ . قطر . حلم . فهذه الصيغة كثيرة الشيوع أيضا ومطردة في جمع الألوان وذوى العاهات ، أمثال : حمر . زرق . عرج . صم . بكم .

وربما كانت كذلك صورة الاسم الثلاثي المضمومة الفاء والعين ، والكثيرة الشيوع في القرآن الكريم ، إذ ورد فيه من هذه الصورة ١٧ مثلا هي :

(أفق . أكل . حلم . ثلث . دبر . ربع . زبر . سدس . شغل . عنق . هزؤ
أذن . نسل . ظفر . عمر . قدس . نصب) .

وقد جاءت هذه الصورة « فُـسَل » مطردة بين جموع التكسير في أمثال : قَضُب (جمع

قَضِيب (، مُعْمَد (جمع عمود) ، مُخْشَر (جمع حمار) مُقْذَل (جمع قَذال) صُبْشَر (جمع صبور) الخ . . .

وأخيراً صيغة « فَعْلَة » مثل فُتِيَة ، صَبِيَة ، وهي الصيغة التي تشكك بعض القدماء في أنها صيغة للجمع ، ووصفوها بأنها لم تطرد في شيء وإنما سمعت في ألقاظ ، ولذلك قالوا عنها إنها اسم جمع ، وليست من صيغ الجمع !! هي إذن أكثر قبولا لأن تجمع ثانية من غيرها من صيغ جمع التكسير الأخرى أمثال : مُفْعُول ، مُفْعَل ، مُفْعُل ، التي أشرنا إليها آنفا .

وهكذا ترى أن الصيغ (مُفْعُول ، مُفْعَل ، مُفْعُل ، فَعْلَة) حين عبرت عن دلالة الجمعية قد شجعت على أن يعاد جمعها مرة ثانية ، وأن تصبح بما يسمى جمع الجمع .
ويبدو أن هذا هو الذي حدث في صيغة (فَعْلان) بصورتها ، فأمثلتها العربية ، لا تعدو أن تكون في الأصل جمع تكسير على الصور الآنفه الذكر ، ثم ألحقت بها الألف والنون لتقوية دلالة الجمعية فيها أو للبالغة ، وكان ذلك اتباعا لطريقة الجمع الشائعة جداً في اللغة الحبشية — ونفترض لذلك أن العربية قد اقترضت علامة الجمع في اللغة الحبشية ، وربما كان هذا الاقتراض عن طريق العربية القديمة في جنوب شبه الجزيرة فألحقت الألف والنون ببعض الأمثلة المجموعة أصلا على الأوزان (مُفْعُول ، مُفْعَل ، مُفْعُل فَعْلَة) .

وقد أحصينا في استقراء سريع من معاجمنا القديمة أكثر من أربعين مثلاً جاءت على (فَعْلان) بصورتها ، ولم نجد بينها ما يتطلب تفسيراً خاصاً سوى ثمانية أمثلة هي :
ذُوبان . خرفان . حملان . مِيدان . جرذان . صردان . رهبان . صنوان .

وقد ورد في القرآن الكريم نحو عشرة أمثلة ليس بينها ما يتطلب تفسيراً خاصاً سوى مثلين هما : رهبان ، صنوان . وأما من حيث (رهبان) فقد اعتبرها بعض اللغويين مفرداً — جاء في اللسان ما نصه : (وقد يكون الرهبان واحداً وجما ، فمن جعله واحداً جعله على بناء فَعْلان ، أنشد ابن الأعرابي :

لو كانت رهبان دير في القلائل لا تحدر الرهبان يسعى فنزل

وأما من حيث « صنوان » ، فيمكن أن يقال إنها جاءت قياسا على « إخوان » لأن المفرد (صنو) يتحد في الدلالة مع المفرد (أخ) ، أى أن الجمع (صنوان) قد نشأ دون المرور بمرحلة (فعلة) كما في « إخوة » لأن الصنو ، يؤنث على صنوة .

وأما سائر الأمثلة الأخرى التي تتطلب تفسيراً خاصاً فنؤثر هنا أن نمر بها مرورا ودون أن نحاول تفسيرها بأكثر من أنها ربما تكون قد جمعت على هذه الصورة قياسا على أمثلة أخرى تشبهها ، وإن كنا نجعل المقيس عليه في معظم تلك الحالات ؛ لجهلنا بتاريخ نشأة الكلمات في أغلب الأحيان . فمثلا يمكن أن يقال : إن الجمع (مُعَلَّان) قد جاء قياسا على الجمع (ذُكْران)

ويعني هنا ، قبل تفسير القلة من الأمثلة المروية في اللغة ، أن نصف القاعدة التي خضعت لها الكثرة من الأمثلة ، وهي تجاوز الثلاثين مثلاً . ونبدأ هذا الوصف بأن نقرر أن إلحاق الألف والنون بالصيغة (فعلة) يأتي لنا بالجمع (فعَلان) المكسور الأول ، وإلحاقهما بالصيغ (فعُول ، فعُول ، فعُول) يأتي لنا بالجمع (فعَلان) المضموم الأول . فحركة « الفاء » في الجمع الأصلي هي التي تحدد حركة « الفاء » في الجمع (فعَلان) ، كما نقرر أيضا أن العربية في إلحاق الألف والنون ببعض أمثاتها قد تحاشت ، فيما يبدو ، اللبس بالثنى ولذلك مالت إلى تسكين الوسط مع صيغتي (فعُول ، فعُول)

نسوق بعد هذا الأمثلة المروية في المعاجم القديمة ، والتي خضعت للقاعدة التي نفترضها في تفسير الجمع المختتم بالألف والنون :

أولا : وزن (فعَلان) بكسر الأول . وأمثلة هذا الوزن في الكثرة الغالبة ، بما ورد منها في اللغة ، لا تعدو أن تكون في أصلها جموعا على صيغة (فعلة) ثم جمعت ثانية بأن ألحقت بها الألف والنون :

- | | | | | |
|----------|---|-------|---|--------|
| ١ - شيخ | ← | شِيخة | ← | شِيخان |
| ٢ - فتى | ← | فِتية | ← | فَتيان |
| ٣ - صبي | ← | صَبية | ← | صَبيان |
| ٤ - غلام | ← | غَلية | ← | غَلمان |

- ٥ - غزال ← غزلة ← غزلان
 ٦ - شجاع ← شجعة ← شجعان (المضموم الأول أكثر شهرة)
 ٧ - أخ ← إخوة ← إخوان
 ٨ - جار ← جيرة ← جيران
 ٩ - نار ← نيرة ← نيران
 ١٠ - قاع ← قيعة ← قيعان
 ١١ - ثور ← ثيرة (قال المبرد جمعوه على فَعْلَة ثم حركوا الياء) ← ثيران .
 ومن المؤكد أن أمثال (باب بيبان ، تاج تيجان ، كوز كيزان ، حوت حيتان ، نسوة نسوان) قد جاءت قياسا على بعض الأمثلة الآنفة الذكر ، أو أنها فقدت إحدى المراحل الثلاث (مفرد ← فَعْلَة ، فعْلان)

ثانيا : وزن (فعْلان) بضم الأول ، وأمثلة هذا الوزن في الكثرة الغالبة بما ورد منها في اللغة ، لا تعدو أن تكون في أصلها جموعا على إحدى الصيغ (فُعْلَل ، فُعْلَل ، فُعْلَل) ، ثم جمعت ثانية بأن ألحقت بها الألف والنون :

- ١ - فُعْلَل + ان = فُعْلَلان . واشتهر ذلك فيما يعبر عن الألوان والعاهات ،
 ١ - أسود ← سُود ← سُودان
 ٢ - أبيض ← بِيض ← بِيضان (كسر الأول طارىء بسبب الياء)
 ٣ - أعمى ← عَمَى ← عَمِيان
 ٤ - أبكم ← بَكَم ← بَكمان
 ٦ - أصم ← صَم ← صَممان
 ٦ - أخرس ← خَرَس ← خَرسان
 ٧ - أعرج ← عَرَج ← عَرجان
 ٨ - ولد ← وَلَدَ ← وَلَدان

(ب) فُعْلَل + ان = فُعْلَلان (بعد تسكين الوسط لئلا يلتبس بالمتنى)

- ١ - غدير ← غَدِر ← غَدِران

- ٢ - جدار ← جدر ← جدران
 ٣ - قضيب ← قضب ← قضبان
 ٤ - رغيف ← رغف ← رغفان
 ٥ - عهد ← عٌهد ← عبدان
 ٦ - صليب ← صُلب ← صلبان

(ح) مفعول + ان = 'فعلان (بعد تسكين الوسط لثلاثي بالثني)

- ١ - بطن ← بطون ← بطنان
 ٢ - ظهر ← ظهور ← ظهران
 ٣ - راكب (أوركب) ← ركوب ← ركبان
 ٤ - ذكر ← ذكور ← ذكران
 ٥ - ضيف ← ضيوف ← ضيفان (كسر الأول طارئ بسبب الياء)

ومع أن المستشرقين يشيرون في كتبهم إلى أن إلحاق الألف والنون في اللغة الحبشية علامة للجمع المذكور الصحيح ، ويقررون أنه قد وجدت له بعض الآثار في اللغتين الأكادية والسريانية . وبرغم ذلك إذا عرضوا لجمع التكسير في اللغة العربية يعتبرون إلحاق الألف والنون من علامات جمع التكسير فيها (١) ١٤

ومن كل ما تقدم نرى أن الصيغة (فعلان) بصورتها بما يسمى بجمع الجمع . وأنها في الأصل جمع على إحدى الصيغ (فَعْلَة ، فَعْل ، مَفْعُل ، فَعُول) ، ثم جمعت ثنية على طريقة اللغة الحبشية بأن ألحقت بها الألف والنون .

وفي الحق أن بعض علمائنا القدماء قد اعتبروا بعض أمثله (فعلان) :ا يسمى بجمع الجمع . جاء في اللسان : (والجدار : الحائط والجمع جدر ، وجدران جمع الجمع) .

(١) S. Moscati : an introduction to the Comparative grammar of the semitic Languages . p . 83 .

وليس اقتراض علامة الجمع من لغة أخرى أمراً فريداً ، أو لا نظير له بين اللغات ، فقد اقترضت الفارسية علامة جمع المؤنث السالم من العربية (ا ت) وجمعت عليها بعض الكلمات الفارسية الأصل مثل (باغ) بمعنى حديقة جمعت على (باغات) بمعنى حدائق . وكثيراً ما اقترضت الإنجليزية علامة الجمع اللاتينية فقالت مثلاً فى جمع (formulae ، formula) . وإذا كان قد تم اقتراض علامة الجمع بين لغتين من فصيلتين مختلفتين كالعربية والفارسية فلا غرابة أن يتم ذلك بين لغتين ساميتين هما العربية والحبشية .

وبالله التوفيق

المشرف على المجلة

ابراهيم أنيس

